الفصل الثاني

المدينة التي لا تقهر

حلمت حلما ورأيت مدينة لا تقهر
صامدة أمام الهجمات المختلفة من كافة انحاء الأرض

وايتمان

بنى الامبراطور قسطنطين مدينة القسطنطينية فوق مدينة قديمة تدعى بيزنطية، وسميت تبعة لمؤسسها. وأشير إليها كعاصمة جديدة للعالم الروماني في 11 أيار 330، وقد قدر لها أن تبقى صامدة وسط العالم المظلم والمعادي أكثر من ألف سنة حتى 29 أيار 1453، عندما اخترق محمد الفاتح ومعه ثمانون ألف تركي أسوارها، ودافع عنها ما لا يقل عن سبعة الآف رجل، ومرة بعد مرة خلال تاريخها الطويل، وبينما غرق الغرب في الظلام والفوضى كانت القسطنطينية تتعرض إلى هجمات الأعداء المدنيين والبرابرة، ورغم أن الهون والقوط والصقالبة والبلغار والعرب والروس المسلمين والأتراك السلاجقة، قد انهمروا على أسوارها الضخمة المنيعة بسيل أسود من الرجال والخيول، فقد تغلبت عليهم، حتى كان محمد والعثمانيون معه الذين فتحوا ثغرة فيها بواسطة اختراع جديد دعي البارود فسقطت القسطنطينية أخيراً في هجوم للأعداء من جهة البر، ولم يكن بعد هذا عجيباً أن سماها البيزنطيون «المدينة التي دافع عنها الرب».

وقال ادوارد غيبون المؤرخ الانكليزي الكبير، والوحيد تقريباً لفترة

زمنية طويلة من بحث في تاريخ الامبراطورية البيزنطية: «كان تاريخها قصة مطردة ومضجرة من العذاب والضعف» إنه نادراً ما كان هناك حكم تاريخي مجحف ومؤذ على نحو دائم يؤهله لأخذ مكانه في مجموعة أكاذيب العالم الكبيرة، ذلك أن الحقيقة شيء معقد جداً فالتاريخ البيزنطي بعيد عن كونه متماثلاً أو مملاً، وهو قصة متنوعة وفاتنة بعيدة عن الذل والمجد، ومرصعة بين فترات الضعف بفترة قوة هائلة من العقيدة الدينية الصادقة العميقة الممزوجة بشكل فريد بسمة بيزنطية من السخرية المصقولة، ومن الذكاء المتقد الملون بعناصر خرافة بدائية، بقي البيزنطيون خلالها جميعاً شعباً مهذباً ومتمدناً على نحو عميق.

وبعد عهد قسطنطين نجح النصف الشرقي من الامبراطورية مع عاصمته الجديدة على بحر البوسفور في الصمود ضد هجمات البرابرة الذين دمروا الغرب، وفقدت بذلك الامبراطورية كثيرا من أراضيها ومقاطعاتها الأوروبية وفي شمال أفريقا، التي تعرضت للتدمير والغزو بين الحين والآخر. ولكنها كانت تنجح في طرد الغزاة المعتدين، واحتفظت تحت سيطرتها بمعظم بلدان البلقان الشرقية، كما بقيت سورية ومصر وفلسطين بصبغتها الرومانية. وأيضاً الثغور الحدودية الهامة في القرم. وبعد مائتي سنة وخلال حكم جستينيان شن هجوم معاكس كبير ضد الفاتحين البربر في الغرب، فاستعيدت إيطاليا وجزيرة صقلية ومعظم شمال أفريقيا وقسماً من أسبانيا، ورغم نجاح هذه الانتصارات فقد دفع ثمنها دماء غزيرة وأموال طائلة من الخزينة إلى حد أنه عندما مات جستينيان وتوسعت الامبراطورية إلى أبعاد شاسعة، عادت مرة أخرى وفقدت معظم أراضيها. وتبعت تلك الأحداث فترة صعوبات وأخطار، فقد تدفق البلغار والصقالبة عبر نهر الدانوب مجتاحين مناطق البلقان الوسطى واليونان، بينما اكتسحت جيوش الدين الإسلامي الجديد التي بدت قاهرة ومتعصبة، كل شيء أمامها في الشرق، وخسرت الامبراطورية أيضاً مصر وفلسطين وسورية والجزيرة وتعرضت القسطنطينية نفسها مرتين لحصار تام من قبل العرب،

واستسلمت معظم آسيا الصغرى لقوتهم لكن كما بدا للبيزنطيين أنفسهم ولأعدائهم في ذلك الوقت، كانت الامبراطورية ما تزال قوية، ولم تلفظ نفسها الأخير، ولم يزل مواطنوها يعتمدون على احتياطاتهم الضخمة، العسكرية منها والمعنوية في تصميمهم لمقاومة هجمات أعدائهم المسلمين الذين وصفهم الأمبراطور نقفور فوقاس بقوله: «أنهم شرذمة كافرة من أبناء هاجر، أولاد كلاب يفترون على المسيح كلمة الرب، ويتبعون رسولاً كاذباً وهم لا يتورعون عن أكل لحم الجمل النجس» ومع ذلك، فعهدهم الطويل القادم..» وبعد حوالي 150سنة من محاولة العرب الأخيرة المجهضة للاستيلاء بالقوة على القسطنطينية، وفي منتصف القرن التاسع عندما بدأت أوروبا الغربية تعيش أحلك الأزمنة وأكثرها فوضوية، وعصور اليأس الهمجي البدائي، شنت الأمبراطورية بقيادة سلسلة من أباطرتها المحاربين العظام هجوماً معاكساً ناجحاً ضد العالم الإسلامي في الشرق، وضد البلغار والصقالبة في الغرب، وأدى هذا العمل إلى توسع الامبراطورية مرة بعد أخرى، وازدهرت الحضارة البيزنطية لفترة مائتي سنة أخرى بشكل لم تعهده من قبل وأصبح يعترف بها كقوة عالمية ثانية، ولم يكن هذا الا نمواً خادعاً لنقاط ضعف داخلية معينة ترافقت مع مجيء الأتراك السلاجقة الذين أضعفوا قواها مرة أخرى في الفترة التي سبقت قيام الحملات الصليبية.

ورغم هذا العرض الموجز لفترة تقارب الف سنة من التاريخ البيزنطي الذي يكشف عن مدى أهمية الدور الذي شغلته مدينة القسطنطينية في الحضارة البيزنطية وبقائها، إلا أن هذا برهان عن عبقرية قسطنطين في اختيار هذا الموقع لروماه الجديدة، فقد أسست المدينة فوق مثلث من الأرض يحده بحر مرمرة من جانب والقرن الذهبي من الجانب الآخر (أكمل موانئ العالم)، وبما أن السور العظيم الذي يمتد من البحر إلى البحر في جهة اليابسة أتم بناءه الامبراطور سيودسيوس الثاني في عام 413 وأعيد تقويته وتحصينه بعد زلزال عام 447، فقد أصبحت القسطنطينية أمنع مكان فوق الأرض، ولم يكن اختيار

قسطنطين لمكان الامبراطورية البيزنطية موفقاً من الناحية العسكرية فحسب، بل كان أيضاً خطوة عبقرية من وجهة النظر التجارية والاقتصادية لأن المدينة تقع عند نقطة حيث تنفصل أوروبا عن آسيا بمضيق البوسفور المائي، ومن سيطر على القسطنطينية فقد سيطر أيضاً على الحركة في ذلك الممر المائي عرضاً وطولاً وبالتالي، فهي القيّمة على طرق القوافل بين الشرق والغرب، وعبرها كانت تصل مواد الحرير والتوابل والمجوهارت من الصين والهند وبلاد فارس إلى العالم الغربي كما تقع أيضاً في ملتقى طرق التجارة بين الشمال والجنوب، وعبرها كانت تسافر تجارة الرقيق والأسماك المحفوظة والفراء من السهوب الروسية عبر البحر الأسود إلى العالم الغربي الروماني، ومع مرور الأيام أصبحت المدينة مترفة على نحو واسع.

وكانت القسطنطينية مكانا عالمياً ومتحرراً وضخماً بمعايير يومنا، وفي أوج قوتها وازدهارها في القرنين التاسع والعاشر وصل عدد السكان فيها على الأغلب إلى ثلاثة أرباع المليون نسمة وربما أكثر اذا أضيف قاطنوها في الضواحي. وفيما بعد زمن الحملة الصليبية الأولى ربما قل عدد السكان، ولكن على الأغلب بقي معظم الشعب في القسطنطينية في ذلك الوقت، وأكثر من سكان انكلترا في نفس الفترة.

وكان بين البيزنطيين عروق وجنسيات مختلفة، ولم يكن عرق بشري فوق الأرض إلا وتمثّله قلة منه ابتداء من اليونانيين والرومان الذين تمكنوا من تقصي سلالتهم خلال ألف سنة ماضية، وخلال أجيال شهيرة من النواب والنبلاء الأرستقراطيين إلى عامة الناس التي تعود جذورها العرقية إلى أرمينيا وسورية وقبرص واليهود والقوط والصقالبة والأتراك والعرب ولكنهم حيث كانوا يتكلمون الرومانية، ويعتبرون أنفسهم بيزنطيين صالحين، لكون البيزنطيين لديهم سجية صهر الناس التي تختلف أصولها العرقية لتجعلهم مواطنين بيزنطيين صالحين، كما برهن الأمريكيون في جعل البولنديين والروس والإيطاليين والألمان والهنغاريين واليهود والانكليز والإيرلنديين مواطنين

أمريكيين طيبين، ولكن فقط لفترة من الزمن كان هناك حاجز اجتماعي لوني في المجتمع البيزنطي في القرن الرابع، عندما تعرض أمن الدولة لخطر أقلية واضحة عرقياً من القوط غير المتمتعين بامتيازها، وكانوا يستخدمون كرقيق لدى الأهالي في أحقر الأعمال المدنية، وأقلها ربحا، ولفترة من الزمن كان عامة البيزنطيين يخشون تمرداً قوطياً إلى درجة أنه كان ينظر إلى كل شخص ذي شعر ناعم وبشرة بيضاء وعيون زرقاء ليس فقط على كونه تهديد سياسي لبنية المجتمع، بل أيضاً على أنه ضرب أدنى عرقياً من الكائن البشري، ولم يستمر هذه الكره للعرق الأجنبي طويلاً، فقد قبل القوط وأدخلوا في الهيئات كسياسيين مثل بقية الأقليات والجماعات التي ألفت الأمبراطورية.

وساعدت ثلاثة عوامل على التحامهم في الكل، وجعلتهم بيزنطيين في الدرجة الأولى فقد كانوا يحسنون التكلم باللغة اليونانية، ومدركين بشكل مركز لكونهم مواطنين في الامبراطورية البيزنطية، كما شاركوا في الدين المسيحي العاطفي العميق، وربما بدا غريباً أن طائفة من الناس كانت لا تتكلم إلا اللغة اليونانية كانت تعد نفسها مواطنين رومانيين فقد كانت الامبراطورية الرومانية منذ أيامها الأولى وعاء صهر لعروق وأجناس بشرية، كما كانت اليونانية اللغة المشتركة في النصف الشرقي من الامبراطورية قبل بدء العصور الرومانية، ولم يستعمر الأغريق ذلك الجزء من العالم فقط لقرون مضت، بل أن الأسكندر المقدوني تبنى أيضاً سياسة واضحة لنشر الثقافة والعادات الاغريقية في جميع أرجاء العالم الكبير الذي فتحه، هكذا أصبحت اليونانية اللغة الثانية لكل شخص في مدن الشرق الأدنى من غير ريب، مثلما أصبحت اللغة الانكليزية اللغة الثانية لكل شخص في جميع شبه القارة الهندية في العصور الانكلو الهندية، وحدت بشكل حتمي أنه لما تحرك مركز الثقل للعالم الروماني من ضفاف دجلة في الشرق، إلى شواطئ بحر البوسفور، حلت اللغة الاغريقية كلغة رسمية في الامبراطورية.

ولم تنقص حقيقة أنهم يتكلمون الاغريقية من إدراك البيزنطيين أنهم كانوا

الورثة لروما القديمة، التي كانت مصدر فخر كبير لهم، ومن الصعب حتماً تصور ما كان يشبه شعور المرء أنه روماني في عالم في ذلك الزمن، فبعضنا فخور لكونه انكليزياً أو فرنسياً أو أمريكياً أو... ولكن بعضنا سيدعي حقاً مطلقاً للفخر لوطني: وأننا نعترف بحق الآخرين أن يكونوا فخورين لكونهم ألمان أو اسبان أو روس، ولكن أن يكون المرء رومانياً كان يعني في العصور البيزنطية، أنه مواطن من الأمة العظيمة الخالدة التي أصبحت مترادفة مع الحضارة نفسها، وحيث كانت روما هي الحضارة والحضارة هي روما. والاثنان مشتركان في العلاقة، فخارج تخوم روما كان هناك الظلام والحياة البربرية. بينما حفظ في داخلها فترة تقارب ألفي سنة بشغف ميراث الاغريق بما فيه: الآداب والفنون، أما القانون والنظام فقد بسطته للجماهير المختلفة الأعراق، أما كنوز المسيح ورسالته في الانجيل المسيحي، فقد أدخرتها قوى الظلام التي سادت في العالم غير الروماني، ولذا فأن تكون رومانيا، لم يكن يعني فقط أن تكون متمدناً بطريقة فريدة تماماً، بل يعني أيضاً أن تكون مدافعاً عن كل شيء متمدن في عالم كان مستوى الفوضى والتشويش المظلمين يهددان فيه بشكل متزايد الحضارة نفسها.

ومن أوجه أكثر أهمية لم يكن البيزنطيون مختلفين كثيراً عن الجمهور في أوروبا الغربية، فقد شابهوا بعقيدتهم المسيحية إلى حد كبير معاصريهم الغربيين. ولم تكن بالنسبة إليهم الحقيقة الرئيسية عالم المعيشة الدنيوية اليومية بل عالما دينيا أيضاً، وفي الواقع فان تكون بيزنطيا كان يتعين أن تكون متديناً بحماسة تقرب حد الاستحواذ، وكان الموضوع المفضل في أحاديثهم الدين الذي كان سبب مناقشات مسرة ومسلية وقوام آمالهم وأحلامهم ووجهات نظرهم وقلب سياستهم وأحد شؤون سياستهم الخارجية، وتماماً مثل موسكو اليوم التي تعتبر أنه لو استطاعت أن تفوز بضم دولة ما إلى الشيوعية تصبح هذه الدولة بشكل عفوي حليفاً وصديقاً لروسيا، وبنفس الطريقة كان البيزنطيون يفترضون أنهم لو استطاعوا هداية البلغار الوثنيين والآفار والروس إلى

المسيحية، فهم أيضاً يكونون قد فازوا بحلفاء وأصدقاء، وكانت أحياناً مثل هذه الهداية الجماعية هدف اتفاقية دبلوماسية مثلما وعد الدوق الكبير فلاديمير صاحب كييف في روسيا أن يصبح مسيحياً ويهدي شعبه إلى الدين المسيحي في مقابل يد الأميرة البيزنطية «آن» أخت الامبراطور باسيل الثاني، ومن الناحية السياسية، كانت النتيجة نصراً موزراً لصالح الدبلوماسية البيزنطية، لأن هداية أكبر دولة سلافية في العالم إلى اعتناق الديانة المسيحية، جعلها بشكل بارز تدور في فلك نفوذ القسطنطينية، وحتى أن لها نتائج بعيدة، لأنه عندما يساق فلاحو كييف في المياه الداكنة لنهر الدنيبر لينتصروا (ليتعمدوا) شاؤوا ذلك أو لم يشاؤوا، فقد أنجبت روسيا مريم المقدسة بطريقة روسية فريدة لا تضاهى، وياللأميرة المسكينة آن التي ظنت أن الصفقة لن تعقد فهي على الأغلب كانت غير سعيدة، فقد كان زوجها فلاديمير بربرياً أخرق، سبق وجمع عدداً مدهشاً من الخليلات والمحظيات إلى درجة وصفه بها معاصروه بأنه فاسق وزان، مما شجعها أن لا تأمل في تذوق نعمة حياة زوجية.

ورغم عمق وإخلاص إيمانهم المسيحي (أو ربما بسببه) نظروا عموماً من وجهة نظر متشائمة إلى الشؤون والامكانيات الدنيوية وكانوا مدركين لعزلتهم المدنية الحضارية وسط بحر واسع من البربرية، ليكونوا فقط متشائمين إنما بشكل مهذب تجاه فرص نجاتهم الطويل الأمد من القدر الذي سبق أن فاجأ الامبراطورية الغربية، وعلى نحو مشابه لدى بعض مفكرينا المعاصرين، الذين يعتبرون إلى حد بعيد أنه لا يوجد فرص لبقاء حضارتنا، لوجود تهديدات موجهة إليها لقد كان البيزنطيون متأكدين تماماً بطريقتهم الحسنة الإدارة، أنه في يوم ما، رغم حماية الرب، ستخضع الامبراطورية للظلام المحيط بها، وقدروا أنها ليست من شؤون الرب أن يثبت ممالك هذا العالم حتى الأبد، رغم كون حاكمها نائباً عن المسيح في الأرض أي الامبراطور رئيس الكنيسة والدولة معاً.

ان صيغة القيصر ـ البابا التي ضربت بها العملة لتصف دور الاباطرة

البيزنطيين، تحدد بالضبط منصبهم الفريد، الذي كان يعني أن كلاً من القياصرة والبابوات لا يسألون عن حقهم المزدوج في الحكم المطلق فقد عاشوا في القصر المقدس في القسطنطينية، وكان هذا عبارة عن مجمع ضخم من الأبنية التي بناها الأباطرة المتعددون عبر السنين، فكانت أكبر بالكرملين في موسكو أو بقصر باغنجهام أو بالبيت الأبيض الأمريكي، لأنها كانت أيضاً نواحٍ سكنية ذات فخامة هائلة أعدت للامبراطور وحاشيته، كان فيها قاعات المآدب وقاعات العرش، وقاعات الملكة وأجنحة الحريم حيث تسود الامبراطورة وحدها على النساء الوصيفات وحيث تقع الكنائس وأبنية الادارات التي فيها أعمال الحكومة، التي يديرها أعضاء من الطبقة الإدارية البيزنطية الواسعة ثم هناك أحياء الحرس الامبراطوري، وقد بنيت جميعها حول حدائق ونوافير المياه فوق أرض تلال متموجة تشرف على مناظر طبيعية لبحري مرمرة والبوسوفور، حيث يقع الآن جامع السلطان أحمد وكان العالم كله مدهوشاً لجمالها، أما في الداخل فوقعت الأبنية الرئيسية ذات الاهمية الاستثنائية بأرضها الموشاة بالموزاييك وجدرانها الرخامية المرصعة، والسقوف المرسومة والمطلية بالذهب، وستائرها ذات النسيج المزدان بالصور والرسوم، وسجادها الحريري المجلوب من بلاد فارس وزليجها المستورد من الصين، وأثاثاتها المصنوعة من العاج والفضة والذهب، وكان الامبراطور وحاشيته يرتدون ثياباً تدل على الأبهة الرصينة، وقد مضت الأيام القديمة للثوب الروماني الفضفاض منذ عهد بعيد، حيث كان الرجال يرتدون ثوباً طويلاً ذا أكمام طويلة، تحاكي أثواب سفراء الامبراطورية الصينية القاسية السميكة مثل ألواح مطرزة، والمرصعة بحجارة ثمينة بينما ارتدت النساء الحرير وهن متزينات على أتم وجه، كما كن يتألقن على نحو باهر بكل ضروب المجوهرات الفاتنة. وكان أثر هذه الفخامة على الزوار هائلاً لأنها بالطبع كانت معدة لذلك وهناك وصف لمقابلة منحت من قبل الامبراطور قسطنطين السابع بروفيد وجنتوس في القرن العاشر لسفير الامبراطور الالماني أوتو الأول وكان إسم السفير لود براند الذي

أصبح فيما بعد أسقف كريمونا وقد استقبل في إحدى القاعات العظمى للقصر، حيث كانت جوقة الغناء تغني عندما أدخل إلى الحضرة الامبراطورية برفقة اثنين من الخصيان، وفرشت الأرض بنبات اللبلاب وأكاليل الغار ونبات اكليل الجبل وتبلات الورد التي فاحت روائحها الخلابة عندما تطأها أقدام الحاشية الامبراطورية، وقد جلس الامبراطور على سرير ذهبي فخم كان يعرف بعرش سليمان وكان في الواقع عبارة عن لعبة ميكانيكية بارعة إلى أبعد الحدود، وعندما اقترب لود براند وسجد أمام الامبراطور كما أرشد، بدأ جهاز العرش بالعمل، فزأر زوج من الأسود الذهبية، وغردت بعض الطيور الصغيرة، وارتفع قسطنطين عالياً ببطء وفخامة حيث دفعه العرش نحو السقف، ولم يدون وقع الحادثة على الأسقف المقبل لمنطقة كريمونا، ولكن معلوم أن مثل هذا العمل كان قد ترك انطباعاً لدى البرابرة الزائرين إلى البلاط البيزنطي، وفيما بعد، عندما وصل أوائل الصليبيين إلى القسطنطينية، ورغم مفاجأتهم بما قرروا اعتباره عادات وترف مخنثة من مضيفيهم المتمدنين، اربكتهم فخامتهم.

وكان الوجود الغريب والشاذ للأخصاء في كل زمان ومكان مظهراً آخر من مظاهر الحياة في القسطنطينية، أدهش الصليبيين، حيث كانوا منتشرين في كل مكان، وتركزوا خاصة في الخدمات المدنية المتعددة التي حكم بوساطتها الامبراطور امبراطوريته، وكانت معظم المناصب الهامة وأغلب السامي منها بأيدي الخصيان، بحكم عادة ترسخت طويلاً فالخصيان امتازوا على غيرهم من الرجال من وجهة نظر الأباطرة. حيث لم يكن لهؤلاء أية طموحات أسروية في السيطرة على الحكم، وبقية الرجال في مناصب ذات نفوذ كبير ربما كانوا ليركبوا المخاطر ليتآمروا لأجل مصلحة أطفالهم، بينما لا يستطيع الأخصاء بحكم طبيعتهم فعل ذلك، لذا كانوا أشد أمانة من أناس آخرين، مثل وزراء التاج الامبراطوري، وفوق ذلك كانوا غالباً رجالاً في غاية الخبث، وكانت الفكرة الشائعة في الغرب أن الخصي على نحو مختلف يتصف بكونه أحمقاً وخبيثاً وكسولاً وغير جدير بالثقة وجباناً ومتخنثاً وشاذاً ليس له صفات الرجولة

وكاذباً، أما في العصور البيزنطية فقد برهن الخصي في الغالب على أنه حاد الذكاء وشجاع في عمله ومتفتح وشريف كبقية الجنس البشري، وأصبح بعضهم قواداً ذوي امتيازات، وقواداً في الأساطيل البيزنطية ورجالات دولة رفيعي المستوى، وكذلك كانوا في الحقيقة محط احترام شديد، إلى درجة أنه كان من الطبيعي أن تجد أبوين يخصيان ولدهما، أو أكثر من أبنائهم منذ الطفولة كي يحسنوا الحصول على مناصب رفيعة عندما يكبرون.

وإذا كان المجتمع البيزنطي قد منح الاخصاء فرصاً طيبة في الحياة، فهناك مجتمعات قليلة أعطت النساء حظاً وافراً مماثلاً لابراز أهميتهن، وقدمت مجتمعات قليلة نساء رائعات مثل اللواتي وجدن في حوليات التاريخ البيزنطي، وقد كان هذا على الأقل جزئياً نتيجة الاسلوب الذي يختار فيه ورثة العرش البيزنطي أحياناً عرائسهم المقبلة وذلك بتنظيم مباريات جمال على نطاق الامبراطورية، ثم يكون زفاف ملكة جمال بيزنطية على الرغم من أن الفائزة في مناسبة ما كانت تفقد حظها بأن تصبح الامبراطورة بردها جواباً أنيقاً رداً على سؤال يطرحه الامبراطور،كما كان هذا نتيجة لطريقة حماية القانون لحقوقهن، فعندما يكن مسيحيات فلدى البيزنطيين كل مسوغ لاهوتي لمعاملة النساء باحترام شديد بقدر الرجال، وعندما يقصر الرجال بذلك كما حدث أحياناً، فإن النساء البيزنطيات نادراً ما كن يفتقرن إلى مناصرة في المراكز الرفيعة ومن يناضل من أجل حمايتهن. فالامبراطورة ثيودورا زوجة جبستنيان بدأت حياتها في ظروف وضيعة جداً وعاشت شطراً من حياتها كراقصة متعرية وخليلة في بعض الأيام، وقد أصبحت بعد زواجها أحدى الامبراطوريات اللامعات في التاريخ البيزنطي، ومدافعة ونصيرة مخلصة لبنات جنسها.

وكان هناك قلة من الامبرطوريات اللواتي كن أقل شهرة كبقية الناس، رغم أنهم لم يكن بجاذبية ثيودورا تلك، مثل تلك الفتاة الأثينية ذات الجمال الخلاب والطموح الذي لا يحد، وكانت تدعى ايرينا التي تزوجت الامبراطور ليو الرابع في القرن الثامن، وبقيت بعد وفاة زوجها وحكمت الامبراطورية دون

اعتراض وبسلطة كاملة، حتى أنها أصرت على الاشارة إليها كامبراطور بدلاً عن امبراطورة.

وكان هناك كلام في وقت ما عن إمكانية زواجها من شارلمان، وقد قيل إنه رغم أنها كانت في الخمسين في ذلك الوقت عندما قدم سفراؤه لى القسطنطينية للتداول في الأمر حيث رحبت بهم في حمامها، ولكن القصة ـ وا آسفاه ـ غير صادقة، ولعل فتاة أخرى من أصل وضيع، ويقيناً أنها اناستاسيا التي بدلت اسمها إلى ثيفونا الارستقراطي، بعد زواجها من رومانوس الثاني في القرن العاشر كانت شهيرة كبقية الامبراطوريات ولكن مشهورة بسبب سوء سمعتها أكثر من فضائلها التي لم تظهر منها أي أثر، وقد اتهمت بدس السم لعمها (حماها) الامبراطور بروفير وجنتوس وزوجها قسطنطين السابع، والأرجح براءتها من ذلك، ولكن ليس ثمة شك على الاطلاق أنها ارتكبت جريمتها الثانية بزوجها الثاني الامبراطور نقفور بمساعدة وتستر عشيقها خليفة الضحية الامبراطور يوحنا تزكمس، وكان لها ابنان من زوجها الاول، اللذان أصبحا بدوريهما امبراطورين، وهكذا كان ممكناً لهذه الأنثى القاتلة في نهاية حياتها أن تدعي لنفسها بكونها ابنة حمى لأحد الأباطرة وزوجة لاثنين آخرين (أجرمت بأحدهما بشكل وحشي وعن عمد) وربة بيت لأخر، وأماً لرابع وخامس أيضاً وأنه سجل رائع وملفت للنظر حتى ضمن المعايير البيزنطية، سيما وأن أربعة من الأباطرة ممن في حياتها كانوا عظاماً ولا مثيل لهم في التاريخ البيزنطي.

وبالطبع لم يكن جميع البيزنطيين يعيشون في دائرة البلاط أو في ظروف الأبهة العظيمة فخارج القصر المقدس كانت ثلاثة أرباع المليون نسمة تقريباً يسعون من أجل حياتهم اليومية تحت ظروف متنوعة كما في أية مدينة أخرى وفي أي زمان، وعاش الأغنياء في بيوت مترفة تحيط بها الحدائق والساحات المركزية، حيث زينت الحدائق بتماثيل الأرباب الوثنية، والحوريات التي تضفي عليها جواً معتدلاً، بينما عاش الاخرون في مساكن صغيرة مزدحمة ذات

شرفات تطل على أزقة ضيقة في أطراف المدينة القديمة، ومع هذا كانت القسطنطينية مكاناً فسيحاً تنتشر فيها الساحات العامة والحدائق والمنتزهات والبساتين وحتى حقول الزيتون والعنب، وبني حول الساحة الرئيسية في المدينة التي كانت تدعى اغسطيوم تخليداً لذكرى هيلانه والدة الامبراطور قسطنطين الكبير، القصر المقدس والهبودروم ومجلس الشيوخ والكتدرائية الضخمة للحكمة المقدسة التي عرفت باسم كنيسة أيا صوفيا. ويتفرع عندها الشارع الرئيسي في المدينة ويمتد هذا الشارع ذو الرخام الرائع لمسافة ثلاثة أميال أو أكثر إلى البوابة الذهبية في السور العظيم لثيوديوس وقد كان شارعاً عظيماً تكتظ فيه الأسواق، ومحال صياغة المجوهرات والعطور وتجارة الحرير، وصانعو الأثاث وأصحاب حرف أخرى كلهم يبيعون بضائعهم من شتى الأنواع التي تحويها مخازنهم المنتشرة على طرفي الطريق، وكانت حياة المدينة ترى دائماً هناك، لأن البيزنطيين كانوا يمضون معظم نهارهم خارج دورهم، أكثر مما نفعل اليوم، فكانت تختلط دنيا المجتمع الراقي مع الفلاحين القادمين من الريف في ذلك الوقت لبيع بضائعهم، وهناك كان الموظفون المدنيون والجنود خارج أوقات عملهم، وجماعات الأطفال يلعبون في الطريق، وعمال التنظيف والمحامون والسواح وفوق ذلك كله الناسكون والكهان، كانوا جميعاً يشاهدون في الشوارع، يتبادلون أطراف الحديث مع أصدقائهم، أويتوجهون إلى أعمالهم، كذلك يشاهد الحضور الدائم للأساقفة، فقد كانت القسطنطينية مدينة الكنائس والأديرة على نحو خاص وكانت غاياتها التقشف والاحسان والطاعة لارادة الرب وهي مشاهد رأى فيها بعض البيزنطينيين ميزاناً معادلاً ضرورياً ضد الترف في البلاط الامبراطوري، وربما أصبح ناسك في بعض الأحيان معبوداً للجماهير كما هو الحال بالنسبة لأي نجم شعبي أو رياضي مفضل في أيامنا، كما كان عرش أي امبراطور غير شعبي عرضة لأن يهتز ببضع كلمات من ناسك ضعيف يعيش حياة تقشف قاسية متطرفة في كهف في تلال كبدوكية على نحو مؤثر أكثر مما لو كان قريباً حيث تعوقه عادة المؤامرات

التقليدية من خصوم سياسيين ثانويين لذا فقد كانت الكنيسة قوة نافذة على الأرض.

ولم يكن جميع البيزنطيين يقيمون في القسطنطينية حيث كانت مدن المقاطعات تعج بالحياة بقدر العاصمة تقريباً رغم أنها لم لكن مثيرة، وكانت الحياة في الريف مملة إلى درجة دفعت ملاك الأراضي الكبار إلى امضاء معظم أوقاتهم في القسطنطينية وبقي الفلاحون في الريف حيث لم يكن لهم خيار الا المكوث هناك، ونظراً إلى أن الأرض كانت أفضل الاستثمارات خلال التاريخ الروماني والدور البيزنطي، كانت هناك نزعة مستمرة لدى جميع المقاطعات للتوسع، وكانت هذه عملية خطيرة ليست فقط بالنسبة لزيادة قوة الاقطاعيين الكبار على حساب حكومة القسطنطينية التي هددوها غالباً، بل أيضاً لأنهم كانوا يجردون بشكل تدريجي أصحاب الأراضي المستقلين الصغار الذين ينتجون أغلب الثروة الرئيسية في الامبراطورية، والذين يجهزون أيضاً صفوف الجيش البيزنطي عندما يسألون الدفاع عن الامبراطورية ضد أعدائها، وكان هذا ينطبق بشكل خاص على فلاحي وسكان ريف منطقة الأناضول الذين لا يعرفون الاستسلام حيث الاتساع الهائل للريف الخصيب والسهول الممهدة التي تبدو أنها تمتد إلى ما لا نهاية من الساحل الايجي في الغرب إلى حدود سورية والجزيرة في الشرق. ولذا كان الأباطرة يبذلون جهودهم لكبح قوة كبار أصحاب الأراضي، وحماية مصالح الفلاحين وصغار الملاك في آسيا الصغرى، وكان هذا عملاً شاقاً وعسيراً بالاضافة إلى أن صغار الملاك أخذوا يقلون، وهاجر أبناؤهم إلى المدن، فعمل بعض الرقيق الضعفاء في أراضي الاقطاعيين المتغيبين، كما اضطر الأباطرة إلى ملء الجيش بالمتسأجرين.

وأدت هذه العملية إلى إضعاف الامبراطورية بشكل متزايد، ولم يكن هذا بالضعف الذي نتج عن النكبة التي دحرت الجيش البيزنطي، في منازكرد عندما هزم جنود الامبراطور، وكان جميعهم من المرتزقة بخيامهم ومواشيهم وعائلاتهم واحتلوا وسط القوة البيزنطية، وكان يحدث مثل هذا من قبل ويطرد

الغزاة خارجاً، وفي آخر الأمر يعمل الامبراطور على استعادة قوته ومجده القديمين، ولم يكن لدى البيزنطيين شك في أن السلاجقة ـ بنعمة من الله ـ سيطردون خارجاً بعد فترة وجيزة أيضاً، ولكن في تلك الأثناء، كان الامبراطور بحاجة إلى مساعدة عسكرية يؤيد فيها نعمة الله، ومع انتصار الجيوش الإسلامية في الشرق لم يكن لدى الامبراطور من مكان يتحول إليه الا الغرب.

إن الامبراطور الذي كانت مهمته لا يحسد عليها وهي أن يحاول إحياء قدر الامبراطورية البيزنطية بعد نكبة منازكرد ـ هو الكسوس كومينوس الذي كان رجلاً قديراً ودبلوماسياً لامعاً، ولم يسأل المسيحيين في الغرب مساعدته في إعادة إحياء الامبراطورية، ولم يطلب منهم أن يساعدوه مباشرة لطرد الأتراك خارج آسيا الصغرى، التي كانت مركز اهتمامه الواقعي، وبدلاً عن ذلك اتجه إلى البابا في روما يسأله تقديم المساعدة لانقاذ المسيحيين في الشرق، وكنائسهم من استبداد فاتحيهم المسلمين، وكان من غير المحتمل أنهم أرغموا مع أماكن عقيدتهم المقدسة التي إليها قدم العديد من الحجاج في الماضي على الوقوع تحت الوطأة الثقيلة للأتراك الكفار كما قال، وكانت كلماته تقصد إثارة استجابة في قلوب وعقول الرجال والنساء العاديين في شتى أنحاء أوربا الغربية، فتاريخ أوربا وتاريخ العالم أجمع ينبغي أن يغيروه بأنفسهم، ولكنهم عملوا على تغييره بطريقة مختلفة تماماً عن تلك التي تخيلها الامبراطور الكسيوس أو تأملها.